

أبو العلاء المعرّي عروضياً

معتصم يوسف مصطفى

مدخل:

شغل الباحثون بالمعرّي الشاعر والمعرّي الفيلسوف، أكثر مما شغلوا بجوانب أخرى من شخصيته المتعدّدة المواهب. وهذا المقال يتناول شخصيّة المعرّي العروضي، تلك الشخصية التي لم تلق اهتماماً. وسيغفل المقال الحديث عن سيرته وحياته، فهي ممّا كُتب فيه المطوّلات من لدن عصر المعرّي نفسه وإلى الآن.

بين المعرّي والخليل بن أحمد:

في أثناء دراستي الأكاديمية للصناعة في شعر سقط الزند - التي اقتضتني النظر في كل ما هو مطبوع من مؤلفات المعرّي - لفت نظري ولع المعرّي بالخليل وإعجابه به، ودفعني ذلك الأمر إلى البحث عن تأثر المعرّي بالخليل، فالإعجاب غالباً ما يتلوه التأثر.

فالخليل بن أحمد له خطة في منهجه المعجمي والعروضي تؤكد أنه صاحب معجم العين، الذي ذهب البعض إلى نفي نسبه إلى الخليل، ونسبه إلى تلميذه الليث بن المظفر⁽¹⁾ وما يؤكد أن كتاب

العين" مؤلفه الخليل هو أن منهج التقلبات الذي استعمل فيه، قُصِدَ منه حصر كل احتمالات الكلام الناشئة من نسج كل الحروف العربية وتركيبها مع بعضها بعضاً، ثم النص على ما استعمل منها وما أُهْمِلَ، وهذا الأمر من استقصاء كل الاحتمالات وحصرها فعلة الخليل في دوائره العروضية، ثم نصّ على المستعمل منها والمهمّل. فالمنهج كما ترى واحد في معجم العين وفي الدوائر الخليلية الخمس. فالخليل يميل إلى الحصر والاستقصاء، ومن هنا كان التشابه بينه وبين المعرّي، فالمعرّي قد فعل نفس الصنيع في لزومياته، فهو قد التزم مالا يُلتزم على جميع حروف المعجم، وهذا كما ترى استقصاء، وقد فعل الشيء نفسه في نشره كصنيعه في الفصول والغايات، فالفصول عبارة عن مواعظ وتساويح، والغايات هي الحروف التي تنتهي عندها تلك الفصول، وقد استعمل المعرّي جميع حروف المعجم في غاياته تلك. يقول د. طه حسين في مقال له بعنوان "المعرّي: أشاعر أم فيلسوف؟": "وعلى هذا النحو تستطيع أن تفهم هذه الخطة العنيفة التي فرضها على نفسه في "اللزوميات" فأخذ نفسه بالتزام مالا يلزم في القافية كما أخذ نفسه بالتزام ما لا يلزم من النظم على جميع حروف المعجم. وعلى هذا النحو أيضاً تستطيع أن تفهم "الفصول و الغايات" فقد فرض على نفسه في النشر شيئاً قريباً جداً مما فرض على نفسه في الشعر، فهو يضع فصوله هذه الكثيرة يلتزم السجع في كثير منها ولكنه يجعل لكل فصل منها غاية، ويلتزم في هذه الغاية هذا السجع، ويأبى إلا أن يقيم هذه الغايات

على حروف المعجم كلها كما أقام اللزوميات على حروف المعجم كلها^(٢)، وهذا الذي أوردناه هو الاستقصاء في طلب كل الممكنات، فهو لا يدع حرفاً من حروف المعجم دون استعمال، وقد فعل المعرّي أشياء أخرى فيها حصر واستقصاء لجميع حروف المعجم، من ذلك ما ورد في "رسالة الغفران" حين ذكر قصة خلف الأحمر مع أصحابه وقد سألهم عن بيتي النمر بن تَوَلب:

ألمّ بصحبتني وهم هجوع خيال طارق من أم حصن
لها ما تشتهي عسلاً مصفى إذا شاء وحواري بسمن

فسألهم ما عسى أن تكون قافية البيت الثاني لو أن الشاعر قال في البيت الأول "أم حفص" فلما سكتوا قال خلف الأحمر: "حواري بلمص"، فينتهز أبو العلاء هذه الفرصة، ويفرّع عليها كما يقول ويفترض قافية البيت الأول على الهمزة، ثم على الباء، فالتاء، ويمضي في ذلك حتى يبلغ آخر حروف المعجم^(٣).

وتورد هنا بعضاً من أسماء كتبه التي كانت على استقصاء حروف المعجم كلها أو أغلبها، فمنها "سيف الخطب" وهو مؤلف على حروف من حروف المعجم، إذ استثنى المعرّي منها الجيم والحاء وما جرى مجراهما، وعلل لذلك بأن الكلام المقول في الجماعات ينبغي أن يكون سجيحاً سهلاً، والكتاب عبارة عن خطب الجمع، والعيدين، والخسوف، والكسوف، والاستسقاء، وعقد النكاح. ومن بين تلك الكتب "خماسية الراح" و"السجعات العشر" والأخير موضوع على كل حرف من حروف المعجم عشر سجعات

في الوعظ. وقد أورد القفطي ثبت كتب أبي العلاء الذي كتبه أبو العلاء واصفاً به كتبه^(٤). ومن كتبه التي استعمل فيها حروف المعجم على الترتيب ودون استثناء لواحد منها - كتاب "ملقى السبيل"، وهو كتاب يكتب الفقرة فيه تترأ ثم يصوغها شعراً، وقد نشره محمد كرد علي أول رئيس لمجمع اللغة العربية في سوريا^(٥). ونحسب أن "ملقى السبيل" كان مرحلة وسطى ما بين "الفصول والغايات" و "اللزوميات" فقد بدأ في "الفصول والغايات" التزم حروف المعجم في النشر، ثم زواج بين النشر والشعر في "ملقى السبيل"، ثم خلص إلى الشعر في "اللزوميات"، والله أعلم!

وحسبنا الذي ذكرنا من أمثلة وقوفاً عند ظاهرة استعمال كل الممكنات، وفي ذلك يتشابه المعريّ والخليل.

وللمعريّ اهتمام معجمي يتضح في رجوعه أثناء مؤلفاته لشرح معنى كلمة يعرف عنها غرابتها أو وحشيتها، لا بل هو يشرح الكلمة التي ترد في شعره، ولم يقف عند هذا فحسب فقد اهتم بشرح بعض دواوين كبار شعراء العربية في العصر العباسي مثل البحري وأبي تمام والمتينى، كما و أنه رجع في أخريات حياته لشرح غامض كتبه التي ألفها وغريها.

ومما كان يشرحه أثناء استطراده في الكلام ماورد في "رسالة الغفران": "قد علم الجبر الذي نسب إليه "جبرئيل" وهو في كل الخيرات سبيل، أن في مسكني حماطة ما كانت قط أفانية، ولا الناكزة بها غانية، ثمر من مؤدة مولاي الشيخ الخليل - كبت الله

عدوّه، و أدام رواحه إلى الفضل وغدوّه - ما لو حملته العالية من
 الشجر لدنت إلى الأرض غصونها، وأذيل من تلك الشجرة مصونها.
 والحماطة ضرب من الشجر، يقال إذا كانت رطبة أفانية، فإذا يبست
 فهي حماطة" (٦)، ثم يورد معاني الحماطة الأخرى (حرقة القلب -
 حبة القلب) (٧)، وهذا اهتمام معجمي، وإن لم يرد في ثنابا معجم،
 ومثل ذلك التفسير للمفردات كثير في رسالة الغفران وغيرها من
 تأليف المعرّي، ونجد محمود حسن زناتي محقق "الفصول
 والغايات" في مقدمته لذلك الكتاب يقول عن المعرّي: "أنه يملئ
 الفقرة على تلامذته ثم يختمها بالغاية، وهي عنده بمنزلة القافية من
 بيت الشعر، وقد تطول وقد تقصر، ثم يملئ التفسير" (٨)، وهذا بعض
 ما ورد في كتابين له، وحسب المقال الإلماع إلى الظاهرة.

وقد شرح المعرّي ثلاثة من دواوين كبار شعراء العصر

العباسي، وهي:

١- شرح ديوان البحتري وأسماء "عبث الوليد" وقد حققته
 ناديا الدولة ونشر في القاهرة، وله تحقيق آخر قام به محمد عبدالله
 المدني وطبع بمطبعة الترقى بدمشق سنة ١٣٥٥هـ - ١٩٣٦م.

٢- شرح ديوان أبي تمام وأسماء "ذكرى حبيب"، وهو كتاب
 مفقود، لكننا نجد صدى شروح المعرّي لشعر أبي تمام من خلال
 شرح تلميذه الخطيب التبريزي لديوان أبي تمام، حيث يورد التلميذ
 طرفاً من آراء أستاذه.

٣- شرح ديوان المتنبّي المسمّى بـ "معجز أحمد" والكتاب قد صدر مؤخراً عن دار المعارف في القاهرة بتحقيق د. عبدالمجيد دياب.

كما قام المعرّي بشرح ديوان واحد من أهل بلدته وهو الأمير أبو الفتح الحسن بن عبدالله بن أبي حصينة، وكان الشاعر قد طلب من المعرّي سماع ديوانه، فسمعه وشرحه، ويقول المعرّي في مقدمة الديوان: "وكان مولاي الأمير الحليل أبو الفتح الحسن بن عبدالله بن أبي حصينة سألتني أن أسمع شعره، فقرأت على ما أنشأه من أنواع القريض"^(٩)، وقد صدر شرح المعرّي في منشورات مجمع اللغة العربية بدمشق.

ولم يقف الأمر بالمعرّي عند هذا الحدّ، فقد فسر تقريباً كل كتبه التي ألفها، فسقط الزند فسرته بـ "ضوء السقط"^(١٠)، ورسائله فسرهما بـ "خادم الرسائل"^(١١)، كما فسر كتاب "اللزوميات" - رداً للمطاعن التي وجهت له - بكتاب "زجر النايح"، وهو من منشورات مجمع اللغة العربية بدمشق^(١٢).

ومما يؤكد اهتمام أبي العلاء المعجمي شرحه لشواهد معجم الجمهرة، وقد ذكره كل من ياقوت والصفدي^(١٣).

وأمر الاهتمام وخطة استعمال كل الممكنات بينان - إلى حدّ ما - تأثر المعرّي بالخليل. وفوق ذلك نجد أن المعرّي قد نظّر في كتب الخليل واطلع على آرائه، فقد ورد في "رسالة الغفران" حول بيت لبيد:

وصبوح صافية وجذب كرينة بموتر تأتاله إبهامها
 إن "أبا علي الفارسي" كان يدّعي في هذا البيت أنه مثل قولهم:
 استحي استحي على مذهب الخليل وسيبويه، لأنهما يريان أن قولهم
 استحي، كما أن استقمت على استقام وهذا مذهب ظريف^(١٤).
 وفي هذا النص دليل على أن المعريّ يعرف مذهب الخليل،
 بل ويذهب إلى استحسانه بدليل قوله: "وهذا مذهب ظريف"^(١٥).
 وورد في كتاب "رسالة الغفران": "فهذا يقوي ما ادّعاه
 صاحب "العين" من أن الدال زائدة في قولهم: صلّحدم"^(١٦)، وفي
 هذا النص ما يثبت معرفة المعريّ بمعجم "العين" للخليل.
 والخليل من الشخصيات التي يلتقي بها الشيخ في تطوافه
 بجنة الغفران، ويسأله عن أبيات نسبت له، فلا يتذكرها الخليل،
 والشاهد الذي نريد هو سؤال الشيخ للخليل: أفنسييت يا أبا
 عبدالرحمن وأنت أذكي العرب في عصرك؟ فيقول الخليل: إن عبور
 الصراط ينفض الخلد مما استودع"^(١٧). فالشاهد أن المعريّ يقدر
 ذكاء الخليل، بل ويجعله أذكي العرب قاطبة في عصره، ولا يستطيع
 المعريّ بحال أن يحكم على ذكاء الخليل - وهو غير معاصر - دون
 أن يكون قد اطلع على فكره، و درس تأليفه.

مما سقته من استشهادات أرى في المعريّ إعجاباً بشخص
 الخليل، وقد تجاوز هذا الإعجاب حدّ الإكبار له إلى التأثير بمنهجه
 في الحصر واستنفاذ كل الاحتمالات الممكنة لشيء ما. وقد دعم
 رأينا هذا ما وجدناه من شواهد على تتبع المعريّ لمنهج الخليل،

ونظره في كتاب "العين"، وتقديره لذكاء الخليل. والمعجب بالخليل لا بد متأثر بأحد أمرين: إما بعلم المعاجم، وإما بعلم العروض والنحو. المعرّي من خلال خصائصه وتلاميذه ومؤلفاته:

العروض علم موسيقي، والموسيقا أمر مسموع، ونقفز من تلك المقدمة إلى نتيجة مؤداها أن السمع حاسة تفيد في اكتساب علم العروض، فكلما تيقظت حاسة السمع قوي الإحساس بالإيقاع والموسيقا. والمترجمون يجمعون على أن المعرّي جُدِر في الثالثة وكُفَّ بصره بسبب ذلك، ومعلوم بداهة - في علم النفس ولدى العوام - أن من يفقد حاسة من الحواس تنبه فيه حاسة أخرى تعويضاً لتلك التي فقدت، فالمعرّي قد استعاض بحاسة السمع عن النظر، فأصبح يرى العالم بأذنيه، والمدقق في شعر المعرّي يلحظ كثرة الجناسات، وبخاصة في شعر سقط الزند، ونذهب إلى تأييد رأينا حول تعويض الحواس بما قاله د. إبراهيم أنيس: "ولأمر ما كان أبو العلاء المعرّي أول شاعر عربي لفت نظرنا إلى ما سماه باللزوميات، فقد قضى أبو العلاء كل حياته يسمع ولا يكتب، وأرهفت أذناه، وسمعه بعد ذلك المران الطويل.

بل لا أكون مغالياً حين أقول إن أوضح ما يتميز به الأدباء المكفوفون في أدبهم هو عنايتهم بجرس الألفاظ ووقعها الموسيقي، وكثيراً ما تشغلهم موسيقا الكلام عن مراميه وأهدافه، فيغمرون المعنى القليل بفيض من الألفاظ والعبارات المتكررة ذات المعنى الواحد أو المتشابهة الدلالة"^(١٨)، والمعرّي بسبب من آفة العمى كان

لا يكتب، وإنما هو يملي شعره، والذي يملي يسمع ما يقول، ولا بدّ له إن طلب استحسان الآخرين أن يستحسنه هو أولاً، وقد ورد في التراجم خير إملائه "اللزوميات" (١٩)، وسماع الناس منه "سقطّ الزند" (٢٠).

وأكبر دليل على رهافة حاسة السمع عند المعريّ، ولُغته واهتمامه بعيوب موسيقا الشعر التي تعتمد على السماع، فنجد في أول رسالة الغفران يروي آياتاً فيها إقواء لعبد المؤمن بن عبد القدوس:

سيغني أبا الهندي عن وطب سالم

أباريق لم يعلق بها وضر الزبد

مفدّمة قزاً كأنّ رقابها

رقاب بنات الماء أفرعها الرعد

هكذا ينشد على الإقواء" (٢١).

هذا خلافاً لملاحظاته المتكررة حول الزحافات التي لا يتبها إليها إلا مرهف السمع. فتجد المعريّ يستهجن زحاف الخدم الذي ورد في بعض شعر امرئ القيس، فيجعل بشاراً يلتقي بامرئ القيس في جنة الغفران ويقول له: "يا أبا هند إن رواة البغداديين ينشدون في "قفا نيك"، هذه الأبيات بزيادة الواو في أولها، أعني قولك و كأن ذرى رأس المعجير غنوةً.

وكذلك: وكان مكاكيّ الجواء

وكان السباع فيه غرقى" (٢٢)

فيأتي الرد من امرئ القيس فيقول: " أبعد الله أولئك ! لقد أسأؤوا الرواية، وإذا فعلوا ذلك فأني فرق يقع بين النظم والنثر؟ وإنما ذلك شيء" فعله من لاغريزة له في معرفة وزن القريض، فظنه المتأخرون أصلاً في المنظوم وهيئات هيئات!"^(٢٣) وهذا الحوار الذي ساقه المعريّ في رسالة غفرانه يدل على اهتمام المعريّ بأمر الزحاف، وفي بقية الحوار يناقش زحافات أخرى لامرئ القيس وزهير. والمعريّ يستحسن بعض أنواع الزحاف فتراه يعلق على رواية بعض الرواة لقول امرئ القيس:

فجئت وقد نصت لنوم ثيابها

بتشديد الضاد من "نصت"، يقول المعريّ على لسان بشار "وإنما حملهم على التشديد كراهة الزحاف، وليس عندنا بمكروه"^(٢٤)، ونخلص مما ذكرنا إلى أن العمى الذي أصاب المعريّ في مطلع حياته قد أرفه سمعه وهياه للبراعة في العروض.

المعرفة بصناعة الشعر لا تقتضي الشاعر أن يكون عارفاً بالعروض، فالشعراء كتبوا الشعر قبل أن يولد الخليل ويستتبط دوائره العروضية مما هو موجود من الشعر. لكن المعريّ مع معرفته بصناعة الشعر كان يعرف علم العروض، وهو قد صدر ديوان اللزوميات بدراسة مستفيضة عن القوافي، بل هو يؤلف الكتب التعليمة في العروض، ويستخدم مصطلحات العروض في شعره ونثره متكلماً عنها بما لا يعرفه إلا عروضي متمكن ضليع في معرفته بالعروض.

وقد تعدّى ولع المعرّيّ بالعروض ذات نفسه ليؤثر في الناس المتصلين به، وبخاصة تلامذه، ومنهم الخطيب التبريزي، وقد كان من أكثر تلامذة المعرّيّ ملازمة له وتأثراً به، وقد تولّى نسخ كثير من تأليف المعرّيّ، وله مؤلف في العروض اسمه: "الوافي في العروض والقوافي"، هذا وقد قال محقق الكتاب عن مؤلفه: "أن مؤلفه هو الخطيب التبريزي، وهو من هو في خدمته للشعر القديم والأدب العربي، وفي تلمذته لأبي العلاء"^(٢٥)، والتبريزي يشير إلى بعض آراء المعرّيّ في العروض والتي سمعها منه إملأء مثل قوله: "ولا يتوالى في الشعر أكثر من أربعة أحرف متحركات. ولا يجتمع فيه ساكنان إلا في قوافٍ مخصوصة. وربما جاء شاذاً في غير القافية، نحو ما أملاه عليّ أبو العلاء المعرّيّ في هذا المعنى:

فرمنا القصاص، وكان التقاص

حتماً، وفرضاً على المسلمينا

والرواية الجيدة، "وكان القصاص" لئلا يجتمع فيه ساكنان"^(٢٦) وللمعرّيّ تلميذ آخر افتتن بالعروض إلى حدّ ألف فيه كتاباً سماه "القوافي" والتلميذ هو القاضي أبو يعلى عبد الباقي ابن المحسن التنوخي، وقد أشار إلى أمر تلمذته على المعرّيّ المحققان لكتابه عمر الأسعد ومحي الدين رمضان موردين نصّاً عن الذين قرؤوا على أبي العلاء من العلماء والأدباء، فممن قرأ عليه من أهل بلده ومن الشاميين وروى عنه ابنا أخيه..... والقاضيان أبوسعّد عبد الغالب، وأبو يعلى عبد الباقي ابنا أبي حصين عبدالله بن أبي القاسم المحسن

بن عمرو بن سعيد بن عبدالمحسن بن سعيد بن عمرو التتوخيون^(٢٧) وقد أورد طرفاً من آراء أبي العلاء العروضية في كتابه المشار إليه آنفاً.

وقد خصّ المعريّ علم العروض بشيء من مؤلفاته، كما لم تخل سواها من مؤلفاته من التعرض لمسائل العروض، حتى "رسالة الملائكة" المقصورة على المسائل الصرفية لم تخل من آراء عروضية.

وأول ما نشير إليه مما كتبه المعريّ في دراسة العروض هو تلك المقدمة التي صدر بها ديوان اللزوميات، متناولاً فيها التعريف بأنواع القوافي، وألقابها، وحروفها، وعيوبها.

وللمعريّ مخطوط عروضي في المكتبة الظاهرية بدمشق برقم (٩٢٣٧عام) بعنوان "رسالة في الأوزان"، والمخطوط محفوظ الآن بمكتبة الأسد الوطنية التي تقع في حي المالكي بدمشق، وهو في مجموع رسائل ابن كمال باشا، ومكتبة الأسد قد أعطت أرقاماً جديدة للمخطوطات مع الاحتفاظ بترقيم المكتبة الظاهرية القديم لها. ومخطوط "رسالة في الأوزان" حققه محمد طاهر الحمصيّ ونشر في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق^(٢٨)، ويتضح لنا من النص المحقق أنّها رسالة في أوزان الشعر الذي نظمه أبو الطيب المتبّي، لا كما يتبادر إلى الذهن من العنوان أنها في أوزان الشعر بعامة.

المصطلح العروضي في أدب أبي العلاء:

يستخدم أبو العلاء المصطلح العروضي في شعره على سبيل التورية والتشبيه، فالذي لا معرفة له بمصطلحات العروض يستغلق عليه فهم كثير مما ورد في شعر المعريّ.

ونسوق أمثلة لما ورد من مصطلح عروضي في مؤلفات المعريّ، دليلاً على أن العروض كان يشغل باله.

ففي سقط الزند، وهو ديوانه الذي أنشأه على حداثة العهد بالشعر، نجد هذا البيت الذي قاله في قصيدته العينية التي يخاطب بها أبا أحمد عبدالسلام بن الحسين البصري:

ودادي لكم لم ينقسم وهو كاملٌ

كمشطور وزن ليس بالمتصرّع^(٢٩)

والمصرّع من الشعر هو ماله قافيتان، قافية لصدر البيت وأخرى لعجزه. وهنا قصد الشاعر المشطور من الرجز والسريع لأنه لا يصرع لاشتماله على ثلاثة أجزاء (تفعيلات)، فالييت يصعب فهمه على من لا يفهم العروض.

وفي قصيدة المعريّ الدالية التي أولها:

أرى العنقاء تكبر أن تصادا فعاند من تطيق له عنادا^(٣٠)

يقول:

بناه الشعر ما أكفوا رويّاً ولا عرفوا الإجازة والسنادا^(٣١)

فالإكفاء مصطلح عروضي يعني اختلاف الروي، والإجازة مثل الإكفاء، والروي هو الحرف الذي تبنى عليه القصيدة وبه

تُسمى، والسناد من مصطلحات القافية، وهو على وجوه خمسة:
التأسيس، والحنو، والتوجيه، والإشباع، والردف.

وننتقل إلى ديوانه الآخر "اللزوميات" حيث يقول في قوافي
حرف "الحيم":

ألم ترَ أن طويل القربى— (م) ض من متقاربه والهجج^(٣٢)
فالطويل يتركب من (فعولن مفاعيلن)، والهجج ضرب من الأبحر
يتركب من تكرر (مفاعيلن)، والمتقارب يكون بتكرار (فعولن)،
والشاعر يقصد أن تفعيلات (أجزاء) الطويل هي مزيج من تفعيلات
الهجج والمتقارب.

ويقول في بيت لزومي آخر:

فمن لي بأرض رحبه لا يحلها

سواي تضاهاي دائرة المتقارب^(٣٣)

فالشاعر يتمنى أن ينزل بأرض يكون فيها وحده، حيث يكون كبحر
المتقارب الذي لا يشاركه في الدائرة الخامسة من دوائر العروض بحر
آخر من البحور، وعن تلك الدائرة يقول الخطيب التبريزي: "ومن
أصل الخليل أن هذه الدائرة لم ينفك فيها من المتقارب غيره"^(٣٤).

وتأخذ أمثلة أخرى من رسالة "الصاهل والشاحج" فالنص

الأول يقول:

"وليس في الشعر وزن عدته أربعون حرفاً في الأصل إلا وزن
واحد وهو الأول من المتقارب، مثل قول "بشر بن أبي حازم":

فأما تميم تميم بن مرء فالفاهم القوم روبي نياما

فإذا ذهبت منه أربعة أحرف لم يرع لذلك، إذ كان ذهابها في مواضع لا يشق عليه أن تنقص أو تفيض، كقول "الخنساء":

وخيل تكئس بالدارعين تحت العجاجة يجمزن جمزاً^(٣٥)

والنص الآخر يقول:

"وفي الشعر وزن آخر عدته أربعون حرفاً، إلا أن أصله في

الدائرة اثنان وأربعون. وذلك هو الضرب الأول من الرمل، مثل قول:

"عدّي بن زيد":

أبلغ النعمان عني ما لكأ

أنه قد طال حبسي وانتظاري

فهذا مبني على خمسة أجزاء سباعيات وجزء خماسي، فذلك أربعون

حرفاً. وأصله أن يكون ستة أجزاء سباعيات. وقد يذهب من هذا

الوزن أربعة أحرف فلا ينقصه ذهابهن في السمع مثل قول "الأفوه":

وترى الطير على آثارنا رأي عين ثقة أن ستمار^(٣٦)

ولننظر في مؤلف آخر للمعري وهو "الفصول والغايات"

أخذين منه نصاً يقول:

"استغفرك ماحي السيئات من قول ليس ياسناد، استكثر من

السناد، كم أوطئ في الذنوب، وأضمن الحوب بالحبوب، وإذا

تقويت لفعل الحسننة أقويت، ومتى انكفأت، إلى الخير اكفأت.

فاسترني ربّي فعيوبي أقبح من السناد والإكفاء"^(٣٧). فهو يتحدث في

النص مستخدماً مصطلحات العروض، فإبطاء الذنوب هو تكرارها

مثلما هو تكرار القافية في الشعر. كما يستعمل غير الإبطاء من مصطلحات العروض في نصّه.

منهج التحقيق العروضي عند أبي العلاء:

كان المعريّ يتبع منهجاً عروضياً في تحقيق بعض المرويات، ونجد ذلك المنهج مبثوثاً في تضاعيف كتبه مثل "رسالة الغفران" و "عبث الوليد".

ففي "رسالة الغفران" يأتي المعريّ بروايات مختلفة لبيت الأعمش:

نبيّ يرى مالا يرون وذكره

أغار في البلاد وأنجدا

فهو يقول عن رواية القراء: حكى "القراء" وحده (أغار) في (غار)، إذا أتى الغور^(٣٨)، ثم يأتي بروايتي الأصمعي ويقول عنهما: "وروي عن الأصمعي روايتان: إحداهما، أن أغار في معنى "عدا عدواً شديداً" وأنشد في كتاب الأجناس:

فعدّ طلابها وتسلّ عنها بناجية إذا زجرت تغير

والأخرى أنه كان يقدم ويؤخر فيقول:

"لعمري غار في البلاد وأنجدا" ... فيجيء به على الزخاف^(٣٩)

ثم يأتي برواية الأخفش الأوسط سعيد بن مسعدة فيقول:

"وكأن سعيد بن مسعدة يقول:

"غار لعمري في البلاد وأنجدا" ... فيخرمه في النصف الثاني^(٤٠)

وأما رأى المعريّ في البيت ما قاله عنه: "وإذا صحّ هذا البيت للأعشى، فلم يرد بالإغارة إلا ضدّ الإنجاد"^(٤١)، فالمعريّ يشكّك في صحة نسبة البيت للأعشى والشاهد قوله: "وإذا صحّ هذا البيت للأعشى"، وهو يرفض رواية الفراء لغويا ولأنه انفرد بالرواية، ويعرض روايات الأصمعي والأخفش الأوسط سعيد بن مسعدة للوزن العروضي. فهو يستعين بالعروض لتصحيح المرويات وتحقيقتها.

وقبل أن نتعرض لما في كتاب "عبث الوليد" من النقد العروضي للآيات نعرّف به. يقول ابن العديم عن كتاب "عبث الوليد": "وكان سيب وضعه أن بعض الرؤساء، وهو أبو اليمن المسلم بن الحسن بن غياث الكاتب الحلبي النصراني، وكان صاحب الديوان بحلب، أنفذ إليه نسخة من شعر أبي عبادة البحتريّ، ليقابل له بها، فأثبت ما جرى من الغلط، ليعرض ذلك عليه. وبعض الغلط من الناسخ، وبعضه من البحتري"^(٤٢). وفي مفتاح كتاب "عبث الوليد" ينص المعريّ على اسم الناسخ، يقول المعريّ: "أثبت ما في ديوان البحتريّ مما أصلح من الغلط الذي وجد في النسخة المكتوب في آخرها أنها بخط ظفر بن عبدالله العجلي"^(٤٣)، وتسمية الكتاب بـ "عبث الوليد" فيها تورية، فهو يعني بالوليد الناسخ الذي عبث بالديوان كما يفعل ولدان، ويعني بالوليد أيضاً أبا عبادة البحتريّ.

وخوف المعريّ من أخطاء التصحيف مثبت مرتين في رسالة الغفران، فهو يعتذر على لسان الشيخ عن لفظ شرحه - كان ينبغي أن يكون معلوماً لابن القارح - قائلاً: "وإنما أفرق من وقوع هذه الرسالة

في يد غلام مترعرع، ليس إلى الفهم بمتسرع، فتستعجم عليه اللفظة، فيظل معها في مثل القيد، لا يقدر على العجل ولا الرويد" (٤٤). وهو يعتذر في موضع آخر عن عدة أقوال أوردها حول بيت، فيقول: "وهو أكمل الله زينة المحافل بحضوره، يعرف الأقوال في هذا البيت، وإنما أذكرها لأنه قد يحوز أن يقرأ هذا الهذيان ناشئ لم يبلغه" (٤٥)، وما أورده من نصين دليل على اجتهاد المعري بالضبط والتحقيق، ودليل على روح المعلم فيه إذ يميل إلى الشرح، ودليل على تهذيبه إذ يعتذر خشية إيقاله بالشرح لمن يعرف، وإيراده الأقوال لذي علم بها.

في كتاب "عبث الوليد" في تعليقه على كسر الكاف في "تلك" - من شطر بيت البحتري "وأطال في تلك الرسوم بكائي" وهو من قصيدته التي أولها "زعم الغراب منبئ الأنباء" - "والكسر غلط في هذا الموضع لأنها إنما تكسر إذا كان الخطاب لمؤنث وقد دل ما بعد هذا وقبله على أنه يخاطب مذكراً" (٤٦). ويستطرد في الحديث عن إعراب كاف "ذلك" في الضرورات وينتقد الشاهد على ذلك بمنطق عروضي. يقول المعري: "وقد ادعى بعضهم أن "كاف" ذلك" تعرب في الضرورات وينشد:

إنما الهالك ثم التالك مدفع ضاقت به المسالك

كيف يكون التوك إلا ذلك

وهذا لا يقبل مما حكاه. إذ كان تسكين القافية لامونة فيه ولا اضطرار" (٤٧).

والمعريّ ينتقد ناسخ ديوان البحري لأنه وضع قصيدته التي أولها "لنا أبدأ بث نعاينه من أروى" تابعة المملودات وكان عليه أن يضعها في رويّ الواو أو الألف. يقول المعريّ:

"ذكر مؤلف هذه النسخة على حروف المعجم هذه القصيدة تابعة المملودات وهذا وهم لأن القصائد تنسب إلى الرويّ فإن كان رويّ هذه القصيدة وأواً فينبغي أن تكتب في حرف الواو وإذا جعل رويّها الألف فقد لزم الشاعر فيها ما لا يلزم وهو الواو" (٤٨).

ويقول المعريّ عن قصيدة البحري التي أولها "بات نديماً لي حتى الصباح": "كانت هذه القصيدة مطلقة في النسخة والصبواب تقيدها، فأما حذفه الياء في مثل قوله اطراح وجناح وهو يريد اطراحي وجناحي فهو كثير جداً في أشعار العرب ومنه قول طرفة:
من عائدي الليلة أم من نصيح بتُّ بهم ففؤادي قريح
يريد نصيحي" (٤٩).

وعن بيت البحريّ القائل:

فكيف وذاك الرأي لم تستبد به مشيراً وذاك السيف لم يتقلد
وهو من قصيدته التي أولها "لعمر المغاني يوم صحراء إريد" يقول المعريّ: "كان بعض المتأدبين المتحقيقين بالأدب يذهبون إلى أن أبا عبادة يقول: لم تستبد به فخفف وهذا لا يجوز إلا في القافية المقيدة كما قال ابن أبي ربيعة:

واستبدت مرة واحدة إنما العاجز من لا يستبد

إن صحَّ أن البحري قاله على هذا اللفظ فيجوز أن يكون أراد لم تستبد به من الإبادة فهو أسلم من الضرورة، وحكى عن الحسن بن بشر الآمدي أنه كان يرويه لم تستبد به يسكون الهاء على مذهب قول الشاعر:

فبت لدى البيت العتيق أخيله

ومطوأي مشتاقان له أرقان" (٥٠)

والمعريّ ينقد البحري نفسه عروضياً حيث يقول عن قصيدته التي أولها "من رقة أدع الزيارة عامداً": "هذا من جيد كلام أبي عبادة إلا أنه أكثر فيها من السناد كقوله ولا عدى وهذا أسهل من قوله وهدى لأن عين عدى مكسورة، ومثل ما هدى قوله: أبعدها مدى. ويا فدا. وللأعلى يدا. وأوحاها ردى. وحين تساندا. وتاركها سدى" (٥١).

ومما تقدم من الاستشهادات نلاحظ اتخاذ المعريّ منهجاً عروضياً في تحقيق المرويات ونقدها.

وما سقناه من أدلة في هذا المقال في ظنيّ - المتواضع - كفيّل بأن يجعلنا نطلق صفة العروضي على المعريّ، والله المستعان.

ثبت مراجع وهوامش المقال

- ١- المزهري في علوم اللغة وأنواعها، عبدالرحمن جلال الدين السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وآخرين، طبع عيسى الباني الحلبي - القاهرة، د. ت. ط، ج ١، ص ٧٧.
- ٢- المهرجان الألفي لأبي العلاء المعري، جماعة من الأدباء، مطبعة الترقى - دمشق، ١٣٦٤هـ/١٩٤٥م، ص ٢٤.
- ٣- رسالة الغفران، أبو العلاء المعري، تحقيق د. علي شلق، دار القلم - بيروت، ١٩٧٥م، ص ٣٢-٣٨.
- ٤- إنباه الرواة على أنها النحاة، الوزير جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف القفطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٦٩هـ/١٩٥٠م، ج ١، ص ٥٦-٦٦.
- ٥- رسائل البلغاء - اختيار وتصنيف محمد كرد علي، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، الطبعة الرابعة، ١٣٧٤هـ/١٩٥٤م، ص ٢٨٠-٢٩٩.
- ٦- رسالة الغفران (مرجع سابق)، ص ٢١.
- ٧- المرجع السابق نفسه، ص ٢٢.
- ٨- الفصول والغايات في تمجيد الله والمواعظ، تحقيق محمود حسن زنتاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة، سنة ١٩٧٧م، ص ٧.
- ٩- ديوان ابن أبي حصينة المعري، شرح أبي العلاء المعري، تحقيق محمد أسعد طلس، المطبعة الهاشمية - دمشق، الطبعة الأولى، ١٣٧٥هـ/١٩٥٧م، ج ١، ص ٣.
- ١٠- إنباه الرواة (مرجع سابق) ص ٦٢.
- ١١- المرجع السابق نفسه، ص ٦٥.
- ١٢- انظر زجر النابح، أبو العلاء المعري، تحقيق أمجد طرابلسي، دار المعارف للطباعة - دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م.

- ١٣- انظر معجم الأدباء، ياقوت الحموي، طبع عيسى البايي الحلبي - القاهرة، د. ت. ط، ج ٣، ص ١٥٠، وانظر الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل أليك الصفدي، تحقيق د. إحسان عباس، فرانز شتايز - فيسبادن ألمانيا، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م، ج ٧، ص ١٠٣. وانظر أبو العلاء وما إليه، عبدالعزيز الميمني، طبع المطبعة السلفية - القاهرة، سنة ١٣٤٤هـ، ص ٢٧٩، حيث رأى مخطوط الجمهرة في حيدر آباد الدكن، وقال عنها (ورأيت على طرر نسخة من الجمهرة عدة فرائد لغوية في غير الشواهد يرويها القاضي أبو سعد عنه" أي عن المعري).
- ١٤- رسالة الغفران (مرجع سابق) ص ٧٠.
- ١٥- المرجع السابق نفسه، نفس الصفحة.
- ١٦- نفسه ص ٨٨.
- ١٧- نفسه ص ١١٢.
- ١٨- دلالة الألفاظ، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة، ١٩٨٠م، ص ١٩٩.
- ١٩- تعريف القدماء لأبي العلاء، جمع طه حسين وآخرين، طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثالثة، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ص ٢٤٩، نقلاً عن مسالك الإبصار لابن فضل الله العمري.
- ٢٠- إنباه الرواة (مرجع سابق) ص ٥٠.
- ٢١- رسالة الغفران (مرجع سابق) ص ٢٧.
- ٢٢- نفسه ص ١٤٠-١٤١.
- ٢٣- نفسه ص ١٤١.
- ٢٤- نفسه ص ١٤٢.
- ٢٥- الوافي في العروض والقوافي، الخطيب التبريزي، تحقيق د. فخر الدين قباوه وعمر يحيى، دار الفكر بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٧٩م، ص ٣.
- ٢٦- المرجع السابق، ص ٢٩.
- ٢٧- القوافي، أبو يعلى عبد الباقي التنوخي، تحقيق عمر الأسد ومحي الدين رمضان، دار الإرشاد - بيروت، ط/ ١٩٧٠م، ص ١١.

- ٢٨- الأوزان والقوافي في شعر المتسي، محمد طاهر الحمصي، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مج ٥٧، ج ٤، ص ٦٠١-٦١٤.
- ٢٩- شروح سقط الزند، أبو العلاء المعري، تحقيق طه حسين وآخرين، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م، ج ٢، ص ٥٨١.
- ٣٠- المرجع السابق نفسه ج ٢، ص ٥٥٣.
- ٣١- المرجع السابق نفسه ج ٢، ص ٥٨١.
- ٣٢- لزوم ما لا يلزم، أبو العلاء المعري، دار صادر للطباعة والنشر - بيروت، ١٣٨١هـ/١٩٦١م، ج ١، ص ٢٨٠.
- ٣٣- المرجع السابق نفسه، ج ١، ص ١٤٣.
- ٣٤- الوافي في العروض والقوافي (مرجع سابق) ص ١٩٤.
- ٣٥- الصاهل والشاحج، أبو العلاء المعري، تحقيق عائشة عبدالرحمن، دار المعارف - القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٨٤م، ص ٦٨٥-٦٨٦.
- ٣٦- المرجع السابق نفسه، ص ٦٨٧-٦٨٦.
- ٣٧- الفصول والغايات (مرجع سابق) ص ٥٤.
- ٣٨- رسالة الغفران (مرجع سابق) ص ٤٤-٤٥.
- ٣٩- المرجع السابق نفسه ص ٤٥.
- ٤٠- نفسه ص ٤٥.
- ٤١- نفسه ص ٤٥.
- ٤٢- تعريف القدماء (مرجع سابق) ص ٥٤١، نقلاً عن الإنصاف والتحري لابن العديم.
- ٤٣- عبث الوليد، أبو العلاء المعري، تحقيق محمد عبدالله المدني، مطبعة الترقى - دمشق، ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م، ص ١٨.
- ٤٤- رسالة الغفران (مرجع سابق) ص ١٨٤-١٨٥.
- ٤٥- نفسه ص ٤٥.
- ٤٦- عبث الوليد (مرجع سابق) ص ٢٠.
- ٤٧- نفسه ص ٢٠.

- ۴۸- نقشه ص ۲۸.
۴۹- نقشه ص ۷۵-۷۶.
۵۰- نقشه ص ۸۱.
۵۱- نقشه ص ۹۹.

